الفصل الأول

المحور المفاهيمى

فى هذا المحور نتعرض لأهم المفاهيم التى ينبغى النظر إليها بشكل يختلف عن السائد فى فقه الجمهور. ففيما يتعلق بالنظر للإنسان ومكانه فى الكون سادت نظرة تلغى عطاء الإنسان نهائيًا وتجعل معارفه محدودة بالوحى. وإزاء المعارف تدعو لأسلمة المعرفة بمفهوم يقيد البحث العلمى، كما سادت أفكار تلغى أية قيمة للأديان والأخلاق خارج مظلة الدين الإسلامى، ومفاهيم للتأصيل باعتباره حربًا على العصر فى مقابل مفاهيم أخرى ترى التحديث باعتباره انفصامًا عن التراث وعن الأصل. ونظرة تحريمية للفنون، وتقييدية للعلوم الطبيعية، وغير مهتمة بالبيئة الطبيعية.. فى هذا المحور نتطرق لتلك المفاهيم داعين لنظرة متجددة لها على ضوء الاجتهاد وآلياته المذكورة فى المقدمة.

١ ـ العطاء الإنسانى بين اللاهوت والناسوت

أهم نظريتين حول مكانة الإنسان فى الكون هما: النظرية اللاهوتية التى تعتبر الإنسان متلقيًا للحقيقة من الغيب عبر الوحى، فمعارفه هى ما نزل به الوحى. النظرية المناقضة لها تمامًا هى النظرية الناسوتية التى تعتبر الإنسان مستقلاً بذاته، ومعارفه هى ما تطولها قدراته العقلية والتجريبية.

النظرة الإسلامية تؤكد أن فى الكون غيبًا لا يدركه الإنسان بذاته. قال تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١] هذا هو مجال الوحى الذى يدركه الإنسان عن طريق التنزيل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

هناك مجال ناسوتى مشروع لمدارك الإنسان وهو متعلق بالكتاب المشاهد، أى الطبيعة التى خلقها الله بالحق، وجعل سننها ونواميسها متاحة لمعارف الإنسان العقلية

والتجريبية. قال تعالى عن هذا الكتاب المشاهد ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣] وقال عن سنن الطبيعة: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقال عن الجهد المطلوب لمعرفة حقائق الطبيعة: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. روى ابن خزامة أن النبي (ﷺ) سئل: **أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقيها، وتقى نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»**.

٢ـ مصادر المعرفة

إن للإنسان أربع مصادر للمعرفة تتكامل ولا تتناقض:

أ ـ فالوحي هو مصدر معرفة الغيب.

ب ـ والإلهام هو مصدر المعارف غير الحسية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

جـ ـ والعقل مصدر معرفة لما يطوله العقل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤، النحل: ١٢، الرعد: ٤].

د ـ والتجربة مصدر معرفة لما تدركه الحواس، قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

٣ـ أسلمة المعرفة

فكرة أسلمة المعرفة يجب أن تعنى طرد افتراض العلوم الطبيعية للمادية؛ لأن هذا الافتراض جزء من النزاع بين الكنيسة والعلم ولا أساس له، لأن العلوم الطبيعية لا شأن لها بهذا الأمر. كذلك كتابة تاريخ العلم الحقيقي وليس الأيديولوجي الغربي، وهو ما يؤكد عالمية المعرفة العلمية ودور الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات في ذلك.

طغيان المادية على عهد التنوير الغربى جعل العلوم تفترض صحة الطبيعة المادية للكون والحياة. وغلبة الحضارة الغربية جعلتها تفترض أن إنجازات الإنسان المعرفية من عطاء الحضارة الغربية. هذان الافتراضان خاطئان، والتخلص منهما هو المفهوم الصحيح لأسلمة المعرفة. أما محاولة تقييد البحث العلمى بأية قيود فى عالم الشهادة فلا يجوز.

٤ ـ الإسلام والأديان

إن القرآن يطلق على أهل الكتاب صفة الإسلام: ﴿ولا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ويعترف للأديان الكتابية بقيمة روحية: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ : ١١٥] ويعترف بأن فى التجربة الإنسانية وسائل لمعرفة الحق بوساطة الفطرة الإنسانية: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]! وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، والصابئون هم الذين اهتدوا من غير وحى للحقيقة الإلهية مثل أمية بن أبى الصلت وسائر الحنفاء المعروفين قبل الإسلام، والقرآن يؤكد أن محمدًا (ﷺ) لم يأت بدين جديد: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]، ولم يأت بدين غريب على الإنسانية: ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، ولا بدين مناقض: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وهنالك طائفة من الأحاديث تعزز هذا الفهم قال النبى (ﷺ): «الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[1]

هنالك فهمان: فهم إسلامى طائفى ينكر ما للأديان الأخرى من قيمة روحية وخلقية. وفهم أوسع هو ما ذهبنا إليه.

وفى الحقيقة فإن وجود ثنائية فى فهم النصوص الإسلامية موجود فى أمور كثيرة إذ أن هذه الثنائيات كثيرة فى الإسلام، مثل قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. ومثل قوله تعالى: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ٧٧] وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]. ونحن نعلم أن هناك آيات محكمة وآيات متشابهة فعلينا أن نهتدى للمتشابهة عن طريق الحكمة، ومقاصد الشريعة، وغيرها من الوسائل التى تطرقنا إليها فى المقدمة.

إن الفهم المتسامح لهداية الإسلام هو الذى يطابق مقاصد الشريعة، وهو الذى يواكب ظروفنا المعاصرة، وهو الذى يخدم مصلحة الإسلام؛ لأن فى مناخه صار الإسلام أوسع الأديان انتشارا فى كل القارات. ولكن مع هذا الفهم الواسع ماذا يبقى للإسلام من خصوصية؟

يبقى له:

أولا: أنه الدين الوحيد بين الأديان العالمية الذى يقبل التعددية الدينية من حيث المبدأ لا كأمر واقع. فالأديان الكبرى الأخرى مكبلة بقيود لا تسمح لها بالحركة إلا على حساب إسقاط بعض عقائدها: فالهندوكية مقترنة بالاثنية الهندية، وهى والبوذية تعتبران العالم شرا لا تتحقق النجاة إلا بالخلاص منه. واليهودية تقترن بصورة عضوية بأصل اثنى. والمسيحية تفترض سقوط الإنسانية كلها فى الشر الذى يحيط بها حتمًا إلا إذا آمنت بفداء السيد المسيح عليه السلام.

الإنسانية محتاجة للدين ولكن الدين الذى يناسبها هو الذى ينطلق من قيم روحية وخلقية تقوم على مقاييس غير ذاتية وفى نفس الوقت تتعامل مع الحياة الدنيا بإيجابية،

وتتطلع لدين لا يحصر القيمة الدينية حصراً طائفياً. هذان الشرطان لا يتوافران إلا فى الإسلام مما يعطيه خصوصية استيعابية لا خصوصية انطوائية.

ثانيا: الأديان الأخرى حققت جدوى روحية وخلقية وأهملت العدالة الاجتماعية، وهذه ميزة ركزت عليها الرسالة المحمدية، وانفردت بختم الرسالات.

ثالثا: الأديان الأخرى تواجه مشكلة التناقض بين الوحى والعقل، وبين الغيب والطبيعة، ولكن الإسلام وهو يعنى الامتثال لإرادة الله يدخل فى تلك الإرادة حقائق الوحى، وقوانين الطبيعة، والعقل، وحرية الاختيار كما أوضحنا.

٥ـ الإسلام والأخلاق

الأخلاق هى مراجع النفس الإنسانية وركائز تماسك المجتمعات، الفكر العلمانى فى الغالب يقيم الأخلاق على المنافع والفكر الإسلامى المنكفئ يقيمها على فهم نصوصى مغلق لأوامر الشارع ونواهيه. ولكن الفهم الصحيح هو أن للأخلاق أسساً موضوعية تبدأ فى أدنى حالاتها بالمماثلة. أى أن تفعل للآخرين ما تحب أن يفعله لك الآخرون. وهذا يطابق الآية: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٩٤]. وتتدرج الأخلاق سمواً لتقوم على إثبات ما يتعارف الناس على حمده وإنكار ما يتعارفون على ذمه. أى تقوم على المعروف والمنكر كما نصت الآية: ﴿**يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾ [الأعراف: ١٥٧] وتسمو الأخلاق لتبلغ درجة أداء الواجب على حساب المنفعة الذاتية «الإيثار»: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر: ٩].

هذه أسس موضوعية للأخلاق، والشرع الإسلامى يقرها، وبإقرارها يسبغ عليها قيمة روحية ويرتب على إتيانها جزاء أخرويًا ورضًا إلهيًا

٦ـ التأصيل بلا انكفاء

استطاع الاجتهاد التقليدى الإسلامى أن يصدر أحكامًا فى كافة القضايا، وقد اعتبرت هذه الأحكام مؤسسة على النصوص المقدسة فى القرآن والسنة. نصوص

انطلق منها المجتهدون من السلف الصالح، وبإعمال آليات القياس والإجماع مددوا أحكام تلك النصوص، وبينما أئمة السلف المجتهدون لم يوجبوا على الخلف اتباع اجتهاداتهم على نحو ما جاء فى أحاديثهم ذمًا للتقليد، فقد أتى حين من الدهر على حركة الفقه الإسلامى سادت فيه أطروحة قفل باب الاجتهاد، فأوجبت على الخلف اتباع السلف على نحو ما جاء فى جوهرة التوحيد:

ومـالك وسـائـر الأئمـة وأبو القـاسـم هداة الأمـة

فـواجب تقليـد حـبـر منهم كـذا حكى القوم بقول يفهم

أطروحتى التى ما برحت أكررها أن هذا الركود الفكرى المؤسس على التقليد لم ينشأ من فراغ، بل سببته عوامل كثيرة داخلية وخارجية:

العوامل الداخلية: أهمها ثلاثة:

العامل الأول: معرفى؛ وفحواه أن حقائق الوحى فصلت فى الكتاب والسنة، وأن ما فعله المجتهدون من السلف هو استخدام القياس والإجماع وسائر أدوات الاجتهاد المشروعة لتمديد تلك الحقائق حتى تشمل كل الحياة الخاصة والعامة. ولذلك صارت النتيجة تبيانًا للإرادة الإلهية بعلم واجتهاد السلف، فما على الخلف إلا اتباعهم.

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث وإلا الفقه فى الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا ما سوى ذاك وسواس الشياطين

العامل الثانى: استبدادى؛ لأسباب تاريخية فصلتها فى كتابى «الدولة فى الإسلام» تحولت الخلافة إلى ملك عضود. ومنذ ذلك الحين تعاقبت على الأمة الإسلامية دول غيبت الشورى والمشاركة وفرضت سلطة أحادية بمنطق القوة على حد تعبير «يزيد بن المقفع» الذى حضر مع معاوية مجلس البيعة لابنه يزيد، فقام وقال: أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ومن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه. فقال له معاوية: اجلس فإنك سيد الخطباء. هذه المقولة تشكل فى جوهرها دستور كافة الدول التى تعاقبت على حكم المسلمين إلا قليلا نادرًا.

الحكم الأحادى وضع قيداً صارمًا على كل اجتهاد يمس شرعية السلطة من قريب أو بعيد، فالإمام مالك جلد لأنه قال: «ليس على مكره يمين» وهذا يمس شرعية بيعة الإكراه.

العامل الثالث: دفاعى؛ لقد انفتح المسلمون على كافة حضارات وثقافات وأديان العالم المعمور فأثروا فيها وتأثروا بها، فخشى حماة العقيدة والشريعة من حلوليات الاستشراق وعقلانيات اليونان، والتمسوا دفاعات كثيرة مثل مقولة: «من تمنطق تزندق» أما الفلسفة:

لا خير فيما الفل أوله وآخره سفه!

هيمنة حزمة التقليد، والاستبداد، والانكفاء؛ مهدت السبيل للغزاة، ورسخت عدم الرضا عن الذات والإعجاب بالوافد.

العوامل الخارجية:

هنالك أسباب خارجية لسيادة ذهنية الانكفاء فى العالم الإسلامى وإعطائها زخما عاطفيًا كبيراً.

لقد اتسم اللقاح الحضارى العالمى على طول التاريخ بالسمات الآتية:

أولا: الحركة البطيئة. فالبوذية انتشرت فى الصين بعد ستة قرون من ظهورها فى شمال الهند.

ثانيا: الانحصار الجغرافى. فالهندوسية انحصرت فى شبه القارة الهندية، وكذلك الحضارة اليابانية.

حضارتان فقط من بين الحضارات العالمية انفردتا بأمرين هامين هما: **الأول:** الانتشار السريع، **والثانى:** تجاوز الجهوية إلى العالمية. هاتان الحضارتان هما: الحضارة الإسلامية، والحضارة الغربية الحديثة. هذه الصفة المشتركة جعلتهما متنافستين، وأعطت التنافس بينهما خصوصية.

لمدة ألف عام كانت القوة السياسية والعسكرية الإسلامية خطراً مباشراً على وجود واستقلال دول أوروبا الغربية. ومع محافظة دول أوروبا على استقلالها السياسى والعسكرى، فإن فكرها وثقافتها وحضارتها استمدت كثيراً من عناصرها ومكوناتها من الحضارة الإسلامية. لهذه الأسباب صارت نظرة الحضارة الغربية للحضارة الإسلامية محملة بأعباء وخصوصيات وآراء ومشاعر مختلفة عن رؤيتها لأية حضارة أخرى.

كل حضارات الإنسان فى أوج مجدها أظهرت نزعة استعلائية على الآخرين. وكل الحضارات المغلوبة أظهرت شعوراً بالدونية نحو الحضارة الغالبة وحاولت تقليدها أو نقمت عليها واستعدت لمواجهتها. الفرق هو أن الحضارة الغربية الحديثة أظهرت درجة أعلى من القوة، والهيمنة، والمثابرة، والعالمية. وهى تواجه كافة حضارات العالم اليوم بمنطق الاستعلاء، وهى مع هذا تعانى من عيوب أساسية هى:

أولاً: غياب الغايات والخلو من الأهداف العليا التى ترسمها عادةً المثل الروحية العليا والأخلاق. هذا العيب أفرز ثلاثة عيوب حوّل العلم إلى العلموية، والتقنية إلى التقنوية، والسياسة إلى الميكافيلية.

ثانياً: الاستعلاء على الآخرين وهذا العيب أفرز ثلاثة عيوب أخرى هى: العجب الذاتى، الاستخفاف بعطاء الآخرين والعدوانية.

إن خصوصية العلاقة بين الإسلام والغرب، وعيوب الحضارة الغربية المذكورة، فى ظل هيمنة هذه الحضارة كلها عوامل تشجع الاتجاه الانكفائى فى رفض الحضارة الغربية المطلق والانكفاء على الماضى ورفض التحديث جملة وتفصيلاً.

إن تعاملنا باستخفاف مع الحضارة الغربية إنكاراً لمنجزاتها وتركيزاً على عيوبها وهمٌ سخيف، ففى هذه الحضارة منجزات إنسانية عظيمة، والانكفاء دون تلك المنجزات يكلف أصحابه ثمنًا باهظًا دون أن ينال من الحقيقة شيئا.

لا بد من نشدان التأصيل بشكل صحوى بعيداً عن تقليد الماضى والانكفاء عليه رفضًا لمنجزات الحضارة الحديثة.

٧ ـ التحديث بلا تبعية

من أفضل كتب المستشرقين عن الإسلام كتاب «مغامرة الإسلام ـ The Venture of Islam» لكاتبه العلامة الأمريكى مارشال هودجسون[٢]. شرح هذا الكتاب كيف اندفع الإسلام فى القرن السابع ليهيمن على الربع المعمور من العالم لمدة ألف عام من ٧٠٠م إلى ١٧٠٠م. لكن هذا التفوق الإسلامى أطاحت به عوامل تعفن داخلية، وأفسده الركود الفكرى والاستبداد السياسى، حتى صار فى الحالة التى وصفه بها مالك بن نبى (حالة القابلية للاستعمار قبل أن يغزوه الاستعمار)، وصار مَنْ ألِفُوا بحضارة الغرب مُعجبين بها قبل أن تفتح ديارهم جيوشه. لقد أبدى الطهطاوى المصرى وخير الدين التونسى إعجابهما بحضارة أوروبا قبل الاحتلال الأوروبى لوطنيهما.

لقد كانت ملامسات الغرب للإسلام فى الماضى القديم كلها لصالح الإسلام، لكن الغرب وبعد فترة ظلامية سماها القرون الوسطى خاض حركة الإصلاح ثم البعث ثم التنوير، ومنذ ١٦٠٠م طفر عبر ثلاث ثورات فى ثلاثة مجالات هامة: حقق ثورة سياسية من منطلقات الثورة الفرنسية، وثورة اقتصادية من منطلقات الثورة الصناعية فى بريطانيا، وثورة ثقافية حققت حرية البحث العلمى، وبموجب هذه الطفرات صنع الغرب الحضارة الحديثة.

الحداثة بكل جوانبها عمت دول أوروبا الغربية وبفضلها حققت لهذه الدول تفوقًا علميًا وتكنولوجيًا وسياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا مكّنها من إخضاع العالم لسيطرتها فاقتسمت العالم (بما فيه العالم الإسلامى) الإمبراطوريات الأوروبية «البريطانية، والفرنسية، والإيطالية، والألمانية، والهولندية، والبرتغالية». الحضارة الأوروبية الحديثة بهرت العالم بصورة سار بها الركبان، ورددتها الأمثال العامية: «كل فرنجى برنجى»، «النصارى للبصارة» .. الخ.

وعلى صعيد المفكرين صار التغنى بحضارة الغرب واسع الانتشار قال ضياء غوك ألب التركى[٣]: «إن حضارة الغرب هى المستقبل وإن حضارتنا الماضية إلى الإعدام»، وما قاله د. طه حسين[٤] فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» يقع فى ذات النطاق. وكان سلامة موسى فى كتابه (اليوم والغد) أقوى عاطفة إذ قال: «أنا كافرٌ بالشرق مؤمنٌ بالغرب». لقد كان التصور الغالب هو أن الحضارة الغربية بكل ما فيها تمثل

مستقبل الإنسانية وليس على الحضارات الأخرى إلا أن تجد لنفسها مقابر تدفن فيها. ونادى برهان غليون بعلمنة الإسلام؛ وحرص نصر حامد أبو زيد على تاريخية النص القرآنى؛ ونادى محمد عابد الجابرى إلى قطيعة أبستمولوچية (أى معرفية) مع التراث. وما إعجاب لجنة نوبل برواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ[٥] وهى من أسوأ مؤلفاته وأكثرها تهافتًا إلا أنها حولت تراثنا الدينى إلى خرافة، وأكدت حتمية نهايتها فى عصر العلم. ليس قدرنا أن نكون أسرى للانكفاء أو نقيضه الاستلاب. بل عبر الاجتهاد الجديد نحقق التأصيل بلا انكفاء، والتحديث بلا تبعية.

وحتى عندما انطلقت من رحم الحضارة الغربية أيديولوچية تتحداها: الأيديولوچية الشيوعية فإن الافتراض الشيوعى صار أنها الوارثة للنظام الرأسمالى وبالتالى لمستقبل الإنسانية كله.

وأثناء الحرب الباردة (١٩٤٦ ـ ١٩٩١م) كان الافتراض هو أن إحداهما سوف ترث العالم؛ لذلك عندما انتصر النظام الغربى لم يكن غريبًا أن يعلن بعض مفكريه نهاية التاريخ وهيمنة النظام الغربى على العالم. والمفاهيم السائدة فى ذهن هؤلاء لا تفرق بين الحداثة والتغريب، فالفهم الدارج هو على حد تعبير طه حسين: «الغرب بخيره وشره هو مستقبل الإنسانية».

شبهات تفوق الغرب

صحب هذا الإعجاب بالغرب شبهات عززت أحقيته بالتفوق أهمها:

أولاً: الحضارة الغربية أعطت صورة لنفسها تصفها بالتفرد والعبقرية والنقاء الذاتى. قال مارتن برنال فى كتابه: «أثينا السوداء» مبدداً هذا الوهم أنه «لدى دراسته لمفردات اللغة اليونانية اكتشف أن ٢٥٪ منها تعود لأصول سامية، وأن ٢٥٪ أخرى تعود لأصول مصرية، بما فى ذلك معظم أسماء الآلهة والأماكن اليونانية، وتعود بقية المفردات لأصول هندية أوروبية». وقال إنه عندما درس تاريخ اليونان القديم وجد أن اليونانيين القدامى كانوا يعتقدون أن حضارتهم نشأت نتيجة استيطان مصرى فينيقى، واختلاط هؤلاء مع سكان أصليين حوالى عام ١٥٠٠ قبل المسيح. وأن اليونانيين استمروا يستمدون كثيراً من ثقافات الشرق الأدنى[٦].

وكشف منتجمرى واط فى كتابه «أثر الحضارة الإسلامية العربية على أوروبا القرون الوسطى»، ما استمده الغرب منها فى كل مجالات الحياة[٧].

وفى الحالين أثبت الكاتبان أن الشوفينية الاثنية والثقافية هى التى جعلت الأوروبيين يحجبون هذه الحقائق.

ثانياً: شبهة موضوعية المعارف الغربية، وأنها خالية من العلائق الذاتية وأنها صالحة لتكون مفخرة وانتماء لكل الإنسانية.

لقد كان أول ما فتح ذهنى ـ وأنا طالب بأكسفورد ـ لما فى المعارف الغربية من تخليط اطلاعى على كتاب مرجعى كنا ندرسه هو كتاب: «التاريخ الدستورى البريطانى»، لكاتبه: دافيد إنسور، تحدث الكاتب عن المهدى فى السودان قائلاً إنه «كان موظفاً لدى الحكومة الخديوية فى السودان ثم اشتغل بتجارة الرقيق! وتتبعت بعد ذلك هذه العيوب فى مجالات أخرى فوجدت مزيداً من دلائل التخليط:

١ ـ الكتب العلمية تفترض الإلحاد مع أن العلم فى حد ذاته لا يستطيع القطع فيما وراء المشاهدات.

٢ ـ استخدام المعارف الأثرية والإنسانية والتاريخية لإثبات دونية الثقافات الأخرى، ودعم دعوى رسالة الرجل الأبيض المنوط به تهذيب الإنسان.

٣ ـ بالنسبة للحضارة الإسلامية فإن كتابى الدكتور إدوارد سعيد ـ رحمه الله ـ «المستشرقون» و«تغطية الإسلام» يكشفان مدى تحريف المعارف الغربية للحقائق الموضوعية لخدمة مصالح ذاتية.

ثالثاً: شبهة علمانية الحضارة الغربية وعزلها للدين عن الدولة وعن السياسة. نعم الفكر الأوروبى فى فترات معينة رفع شعارات من هذا القبيل، فالثورة الفرنسية فى قمة حماستها قررت إلغاء الدين، واضطهدت رجال الدين وحرمت العبادة، ولكن نابليون الذى انقلب على حكومة الإدارة (١٧٩٩م) خف لمصالحة الكنيسة وعقد معها عهداً.

إن مظاهر العبادة فى الكنائس قلت، ولكن الكنائس كمؤسسات دينية، اجتماعية، خيرية وتعليمية فى المجتمعات الغربية قوية للغاية. ومهما نصت الدساتير الغربية على «علمانيتها» فإن وجود الدين فى حياتها الدستورية والسياسية لا تخطئه العين. فرؤساء

الدول، والشهود، والمتهمون، يؤدون قسمًا على الإنجيل قبل ممارسة أدوارهم التنفيذية والتشريعية والقضائية، قسمًا يفترض التزامهم بمحتواه وهو قسمٌ لا معنًى له ـ كما قال جورج واشنطون الرئيس الأمريكى ـ إذا لم يكن المقسمون معترفين بقدسية الإنجيل. وكثير من البلدان الأوروبية ترسم الصليب على العلم. والدولار أيقونة الاقتصاد الحديث مكتوب عليه (عَلَى اللَّه تَوَكَّلْنَا). والأحزاب السياسية فى الغرب تتخذ أسماءً مسيحية وحتى إن لم تفعل فإنَها تتنافس فى كسب تأييد الكنائس بحيث يمكن تحديد صلة كل حزب بهذه الكنيسة أو تلك.

ولرجال الدين دور كبير فى الحياة السياسية فى البلدان الغربية لا سيما فى الولايات المتحدة، وكان ٦٣٪ من الأمريكيين المتدينين قد صوتوا لبوش فى الانتخابات قبل الماضية ورجحوا كفته، بل قال سيمور مارتن: «إن الولايات المتحدة هى الأكثر تدينًا بين الدول الصناعية»[٨]. أما إعادة انتخابه فى انتخابات ٢٠٠٤م، فمع أن حالة الاقتصاد الأمريكى والاضطراب فى العراق يدلان على حالة إخفاق فإن على رأس العوامل التى رجحت كفة الرئيس بوش يأتى العامل الدينى.

إن الفكر العلمانى اللادينى لم يستطع طرد الدين من الدولة ولا من السياسة ولا من الحياة العامة، بل توصلت المجتمعات الغربية لمعادلة تعايش تزيد من تأكيد أن الحضارة الغربية حضارة مسيحية. هذا الوصف لها ليس للإساءة إليها ولكن لنفى حيدتها وعقلانيتها الخالصة.

رابعاً: شبهة انقراض ثقافات الماضى وأن التراث ـ على حد تعبير د. زكى نجيب محمود فى كتابه الفلسفى عن المنطقية الإيجابية ـ لا يساوى شيئًا بل أولى به سلة المهملات[٩].

هذا الموقف من ثقافات الإنسان العريقة كان شائعًا ولكنه منذ الثمانينيات تراجع ليخلفه موقف سائد لدى الأوساط العلمية فى اليونسكو وغيرها يعترف بقيمة هذه الثقافات.

لقد بين تقرير المفوضية العالمية للثقافة والتنمية، وهى منظمة مكونة بالتعاون بين اليونسكو والأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٩٥م بعنوان (التنوع البشرى الخلاق) كيف أن مشاريع التنمية الاقتصادية التى لم تأخذ الثقافة فى حسبانها باءت بالفشل، يقول

التقرير : «التنمية خارج السياق الإنسانى والثقافى نموٌ بلا روح» وبعد تناول كافة الأمور المتعلقة بالثقافة يرى التقرير أن تضاف الثقافة بندًا جديدًا فى حقوق الإنسان العالمية[١٠].

خامسًا : هنالك تيار علمانى فى الغرب اتخذ موقفًا عدائيًا من الدين وحمّله مسئولية التخلف والظلامية والعنف فى الحياة الغربية نفسها ، هذه الإدانة للدين فى الغرب أسقطها بعض المفكرين المسلمين على دور الإسلام . وجهر هؤلاء بفكرة أن الفكر الحديث الجاد والعلم قد طردا الدين نهائيًا من الحياة لتقوم الحياة على العلم .

هذه الشبهات مضافة لحقائق التفوق الغربى خلقت ذهنية شرقية كارهة لذاتها مفتونة بالوافد . هؤلاء يعبّرون عن الحداثة كاستلاب ، وموقفهم هذا يغذى موقف الأصل كانكفاء ، ويؤجج نيران الصدام بينهما فى الحرب الأهلية الدائرة فى المجتمعات الإسلامية . بل إنهما يقيمان انفصامًا فى نفوس كثير من الأفراد بحيث صارت نفس الواحد منهم كالإله الرومانى يانوس ذى الرأسين : رأس ينظر فى اتجاه والرأس الآخر ينظر فى الاتجاه المعاكس (الإله يانوس ذو الرأسين هو الذى سُمِّى به شهر يناير ؛ لأنه ينظر فى اتجاه السنة الماضية وفى اتجاه السنة الجديدة) .

٨ ـ العلوم الطبيعية

إن من أهم أركان التحديث إطلاق حرية البحث العلمى ، واعتماد قيمة المعرفة العقلية والتجريبية فى كشف قوانين الطبيعة ، وينبغى اعتبار الطبيعة كتابا كونيًا : ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف : ٣] وقال تعالى : ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠] ينبغى كفالة حرية البحث العلمى والتكنولوچى .

٩ ـ الفنون

الفن هو استخدام المهارة والخيال لخلق الأشياء ، والبيئات ، والتجارب الجمالية التى تتأتى المشاركة فيها للآخرين[١١] توجد تصنيفات عديدة للفنون ، فهنالك التصوير أو الفنون المرئية (من ذلك الرسم ـ التلوين ـ النحت ـ التصميم الفنى ـ الخزفيات ـ

والعمارة)، والسماع أو الفنون المسموعة (الموسيقى بأشكالها المختلفة)، والآداب (من شعر ـ نثر فنى ـ رواية ـ قصة)، ثم الفنون المختلطة مثل الغناء، أو فنون الأداء المختلفة كالرقص والدراما. الاجتهاد الإسلامى التقليدى لم يجد حرجًا مع الفنون الأدبية. ولكن ـ مع استثناء بعض الأشكال الفنية التى تواطأ عليها فنانو دولة المسلمين التاريخية ـ فإن سائر الفنون الأخرى المرئية والمسموعة والمختلطة قد طردت من أغراض الدين. ونال نصيب الأسد من العداء نوعان من الفنون: السماع (وهو يشمل الموسيقى وآلاتها، والغناء بأشكاله)، والتصوير (وهو يشمل النحت والرسم والتلوين). فصار الفهم التقليدى السائد هو أن الفن ـ وبدون الإلمام بجوانبه المختلفة المذكورة أعلاه ـ يجافى الدين ولا يليق إلا بفكر دهرى علمانى. هذه النظرة منكفئة ومتناقضة تمامًا مع الفهم الصحيح لموقف الإسلام من الفن.

لقد تناولت موقف الإسلام من الفن فى محاضرة نشرت ضمن كتابى: «على طريق الهجرة الثانية»[١٢] الدين الإسلامى إيجابى النظرة للعالم، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]. وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ﴾ [الأعراف: ٣٢]. والجمال من مقاصد الإسلام فى الكون: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ ـ ٤]، وقال عن الأنعام: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]. لقد وظف الناس الأنعام لأغراض نفعية معينة، ولكنهم أيضاً التمسوا فيها قيمًا جمالية، وتغزلوا فى جمالها، وبنوا صرحًا جماليًا.

لقد فاق القرآن الكتب المقدسة الأخرى بأن نصه واحد محفوظ، ونصوصها متعددة مختلف عليها، وفاقها بمعان اشتمل عليها وخلت منها، وفاقها كذلك فى أنه إنجاز فنى رائع لا تجاريه نصوصها فى هذا المجال. لقد أعجز القرآن فصحاء العرب بسوره وآياته مستخدماً كل فنون البلاغة من بيان فيه التشبيه والمجاز والكناية، ومعان بليغة فى خبرها وإنشائها، وبديع يحوى الطباق والجناس والاقتباس والسجع والتورية والمقابلة.

وكانت خطب النبى (ﷺ) وأحاديثه نثرًا فنيًا ممتازًا. وفى كثير من الأحيان استخدم الشعر أسلوبًا للتعبير عن موقف:

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

نعم ليس النبى شاعرًا ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] ولكن هذا لا يمنع أن يستشهد بالشعر كأسلوب فنى له مواقفه التى تناسبه، ولا يمنع أن يتذوق الشعر مثلما تذوق شعر حسان وحثه عليه.

وأنشده كعب بن زهير قصيدته الغزلية المادحة (بانت سعاد) فكافأه بأن خلع بردته عليه، ولم ينكر من القصيدة إلا عبارة واحدة هى قول زهير: مهند من سيوف الهند مسلول، فقال له: مهند من سيوف الله مسلول.

لقد تعاقب على الأمة الإسلامية عهدان ـ الأموى والعباسى ـ وفيهما صار الحكم ملكًا عضودًا، ونشأ مجتمع دنيوى مترف، فيه ما فيه من استخفاف بالدين وتمتع بالملذات، فى وجه هذه التيارات اندفعت اتجاهات فى الدين أقرب إلى الانطواء والانكفاء واتخاذ موقف ناف للعالم، وبما أن الجماليات اتخذت نهج الملذات فقد ظهر تناقض أساسى بين الدين والفن وراجت تفاسير لآيات القرآن وأحاديث نبوية ترسخ التناقض التام بين الدين والفن.

تصدى ابن حزم[١٣] ـ وهو من أعلام علماء السلف ـ لأهم تلك الأحاديث فجرحها[١٤]، مثلاً حديث جاء فيه: إن الله حرم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها، وحديث آخر: نهى النبى (ﷺ) عن تسع، والغناء أحدها. وفسر كثير من المفسرين قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]. قالوا: لهو الحديث هو الغناء. قال القرطبى[١٥] فى تفسيره: إن سبب نزول هذه الآية هو النضر بن الحارث بن علقمة، وكان يشترى القيان ويعلمهن أساطير الأولين للتغنى بها كيدًا للإسلام.

وأتوا بأحاديث فى تحريم آلات الموسيقى مثل: أمرنى ربى بنفى الطمبور والمزمار، وحديث: نهى رسول الله (ﷺ) عن ضرب الدف ولعب الصنج وصوت الزمارة. الأول رواه إبراهيم بن يسع، قال عنه البخارى[١٦]: حديث منكر، والثانى من رواية

عبد الله بن ميمون عن مطر بن سالم، والأول «ذاهب الحديث» والثانى «شبه مجهول»[١٧].

ماذا فى هذه الآلات؟

إنها تأتى بأصوات تحاكى أصوات الطيور المغردة والحيوانات، فهى تحاكى أصواتًا طبيعية وتنظمها فى أنغام لتستميل الطباع، مثلما هو أثرها فى عالم الحيوانات والطير، وهى فى هذا المجال على حد التعبير القرآنى: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣]، وفى إشارة لهذا الميل الفطرى والتشابه بين المخلوقات قال الإمام أبو حامد الغزالى[١٨]: «من لم يحركه العود وأوتاره والربيع وأزهاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج، زائد فى غلظ الطبع وكثافته، على الجمال والطيور، بل على جميع البهائم. فإنها جميعا تتأثر بالأنغام الموزونة»[١٩].

هنالك أحاديث كثيرة تبيح السماع والآلات، مثلاً روت عائشة أن امرأة جاءت إلى رسول الله (ﷺ) فقال: (يا عائشة أتعرفين هذه؟ قلت: لا، قال: قينة بنى فلان، أتحبين أن تغنيك؟) ففعلت. وفى يوم عيد كان الحبش يلعبون فى مسجد النبى (ﷺ) فأذن النبى لعائشة بمشاهدتهم حتى ملَّت، وكان يقول: دونكم بنى أرفدة، أمنا بنى أرفدة.

صحيح أن الإسلام نهى عن الصور والتماثيل؛ لأنها كانت لأوثان، أى لأنها كانت ذات دلالة دينية شركية، ولكن إذا انتفى هذا الطابع فلا حرمة. قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، فالتماثيل هنا عند اعتبارها فنًا لا رمزًا دينيًا تعد من نعم الله للإنسان.

الصور، التماثيل، الأقوال، الأفعال، كل هذه المسائل إذا كان القصد منها دينيًا شركيًا أو وضعت فى مكان بحيث تشغل المصلى عن صلاته أو العابد عن عبادته فإنها منكرة، أما إذا كان القصد منها واضحًا لأغراض عملية أو جمالية فلا حرمة. لقد سك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عملة عليها صورة الملك الفارسى، وعائشة روت أنها كانت تلعب بالعرائس فلم ينهها النبى (ﷺ).

أقول:

١ ـ الإسلام دين عمارة للدنيا وللآخرة، وهو دين فطرة يقرها وينظم ممارستها.

٢ ـ الفن من فطرة الإنسان وله موقعه فى حضارة الإسلام ونظامه. وهو من ضمن حاجات الإنسان الأساسية العشر الواجب إشباعها [٢٠]، والفن يقوم بوظائف عديدة منها الرقى الذوقى، فتح المدارك، الترويح، الاتصال بالقيم العليا وتطوير الصناعات (مدنية وعسكرية)، وغير ذلك.

٣ ـ لقد وظف الفن فى مجالات دينية شركية وفى مجالات الملذات الهابطة، هذا النوع من الفن محرم؛ لأنه ترويج للانحراف لا لأنه فن.

٤ ـ لأسباب تاريخية صار العدد الأكبر من المسلمين ـ كما يظهر فى خطب الجمعة والصفحات الدينية فى الصحف ـ يرون وجود تناقض بين الدين والفن، الحقيقة التى تؤكدها التجربة الإنسانية هى أن الدين والفن كلاهما يدفع الإنسان بقوة الإيمان وبروعة الفن إلى تجاوز قدراته.

لا أحد يشك فى أن الإيمان كفيل بمضاعفة قدرات صاحبه الطبيعية، أما الفن فقد صور آثاره ابن الفارض تصويراً جميلاً:

فطيف خيال الظل يهدى إليك فى كرى اللهو ما عنه الستائر شقت

١٠ ـ البيئة الطبيعية

الإسلام يؤكد على سلامة البيئة الطبيعية، الآيات القرآنية التى تمدح خلق الله وتشير لمكونات البيئة الطبيعية من فلك وبحار وجبال وحيوانات وحشرات كثيرة، قال تعالى: **﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾** [الأنعام: ٣٨]، وقال: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾** [فاطر: ٢٧]، وهى تؤكد حسن صنعة الخالق كما تؤكد ضرورة حماية

البيئة، فالقرآن الكريم يحمل الإنسان مسؤولية إفساد البيئة بقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، بل لقد أشار إلى أن خراب الأرض والقتال بين الناس هو مما تنبأت به الملائكة لدى خلق آدم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والتعاليم الإسلامية تحث على حماية البيئة الطبيعية وفقا للمبادئ التالية:

أولا: مقاصد الشريعة وخاصة: درء المفاسد وجلب المصالح ولا ضرر ولا ضرار، كلها مبادئ تعنى ضرورة الحفاظ على البيئة الطبيعية وحماتيها.

ثانيا: نصوص عديدة تحرم الإفساد في الأرض: قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٢] وقال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦، و: ٨٥].

ثالثا: الحث على الطهارة والتطهر، وهى نقيض التلوث، وهذا موجود فى العديد من النصوص: قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، وقال رسول الله (ﷺ): «النظافة من الإيمان».

رابعا: الحث على الاهتمام بالزراعة وغرس الأشجار، ولا يخفى أن هذه خاصة فى البيئة الفقيرة بالأشجار تؤدى إلى حماية البيئة من التصحر. قال رسول الله (ﷺ): «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلاَّ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ». وقال: «من نصب شجرة، فصبر على حفظها، والقيام عليها حتى تثمر، فإن له فى كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل». وغير ذلك من الأحاديث التى تحث على غرس الفسيلة حتى ولو كادت القيامة أن تقوم.

هذه المبادئ الإسلامية كلها تصب فى الاهتمام بالبيئة الطبيعية، وتعطى الاهتمام بها قيمة روحية عظيمة؛ حيث يؤجر من يحفظها، ويؤثم من يفسد فى البر والبحر والحرث والنسل.

حماية البيئة من منظور عالمى

كوكب الأرض هو موروث الإنسانية المشترك وهو يواجه مخاطر كثيرة جلها من صنع الإنسان، ففى الحاضر خطر على الموارد الطبيعية، وفيه خطر على البيئة الطبيعية، وخطر على أنواع النباتات والحيوانات. وخطر على الحياة البشرية نفسها. هذا الخطر يدل عليه انحسار الغطاء النباتى، وزحف الصحراء، وقلة المياه العذبة، وانتشار الجفاف، وأخيراً ظاهرة الاحتباس الحرارى.

إهمال البيئة الطبيعية كان جزءا من توجهات عامة أثبتت الدراسات والتجارب بطلانها. هى: مقولة أن الاهتمام بقضايا البيئة الطبيعية ليس أولوية للبلدان النامية. بينما ثبت أن لتدهور البيئة الطبيعية آثار اقتصادية سالبة، وأن الاستثمار فيها يؤدى لفوائد تنموية متعددة الوجوه. كما أن التنمية فى البلدان النامية فى أكثر الحالات أهملت القطاع التقليدى. وفى السودان أجريت للحكومة دراسة فى عام ١٩٨٧م اتضح أن الاستثمارات، والمدخلات، والخدمات موزعة على القطاع الحديث والتقليدى بنسبة ٩٥٪ للأول و٥٪ للثانى. وهذا مقياس لدرجة الاستخفاف بالريف والبادية أو بالعبارة السياسية التهميش. والتهميش الذى غذى الاحتجاج المسلح. الاهتمام بالقطاع التقليدى من أركان الحكومة الراشدة وهو من أركان بناء السلام.

على الصعيد الفنى دق نادى روما فى الثمانينيات ناقوس الخطر. وتتالت المؤتمرات والحلقات الدراسية لتغطى كافة وجوه عدوان الإنسان على البيئة الطبيعية. انتقل الاهتمام من المجال الفنى العلمى إلى المجال الدولى الذى خطى الخطوات الآتية: انعقاد قمة الأرض الأولى فى ريودى جنيرو فى عام ١٩٩٢م والذى اتخذت فيه قرارات أهمها: ضرورة إبرام اتفاقية للحد من انبعاث الغازات الضارة بالبيئة. ثم إعلان الأمم المتحدة عن أهداف الألفية الثمانية، وواحد منها حماية البيئة الطبيعية، وعقدت قمة الأرض الثانية فى عام ٢٠٠٢م فى جوهانسبرج بجنوب أفريقيا أو ما سمى بريو +١٠. ثم بروتوكول كيوتو الذى دخل حيز النفاذ فى ٢٠٠٥، والذى أبرم فى اليابان منذ العام ١٩٩٧م وفيه التزمت الدول الصناعية بخفض انبعاث الغازات الضارة بالبيئة فى الفترة من ٢٠٠٨ إلى ٢٠١٢م بمعدل لا يقل عن ٥٪ فى النسبة، وبزيادة المساحات الخضراء، وباستثناء الدول النامية حتى الموعد المضروب، وبدعم استثماراتها فى مجال تحسين البيئة. هذا البروتوكول لم يدخل حيز النفاذ إلا فى فبراير

من هذا العام ٢٠٠٥م بعد أن حاز على النسبة المطلوبة من المنضمين، والولايات المتحدة الأمريكية من أبرز معارضيه.

منذ مؤتمر «ريو دى جانيرو» والمؤتمرات بعده تنامى الوعى المطلوب للمحافظة على البيئة والحياة الفطرية. استيقظ العالم لمسألة البيئة ودرس المشاكل وحدد السياسات المطلوب تنفيذها، ولكن لم يُكوِّن آلية لمتابعة التنفيذ على الصعيد الدولى. هذه ثغرة ينبغى سدها أعجل ما يكون.

***

الهوامش

١ ـ رواه البخارى ومسلم وأبو داود.

٢ ـ Marshal Hodgson - The Venture of Islam

٣ـ ضياء غوك ألب التركى ملهم أتاتورك وأبوه الروحى، وقد عبر عن آرائه المنصبة فى استبدال الإسلام بالقومية التركية للأتراك فى The principles of Turkism، و Turkish nationalism and Western Civilization

٤ ـ طه حسين (٢٨ أكتوبر١٨٨٩ ـ أكتوبر ١٩٧٣م): عميد الأدب العربى، ولد فى محافظة المنيا فى أعالى مصر، نصب وزيرا للتربية عام ١٩٥٠.

٥ ـ ولد نجيب محفوظ سنة ١٩١٢ بأحد الأحياء العتيقة بالقاهرة ـ شغل وظيفة مستشار وزير الثقافة المصرية لشؤون السينما. أنتج العديد من القصص. تحصّل على جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٨٨.

٦ ـ مارتن برنال، «أثينا السوداء» الصفحات: ١ ـ ٢

٧ ـ مونتجمرى واط، «أثر الحضارة الإسلامية العربية على أوروبا القرون الوسطى» ص٥.

٨ ـ مجلة نيوزويك الأمريكية عدد ٧ مايو ٢٠٠١م.

٩ ـ د. زكى نجيب محمود غيّر أراءه فيما بعد إبتداءً من كتابه: «تجديد الفكر العربى».

١٠ـ التنوع البشرى الخلاق، ترجمة عربية للكتاب الذى أصدرته المفوضية العالمية للثقافة والتنمية World Committee for Culture and Development WCCD؟ تحرير وتقديم د. جابر عصفور. القاهرة ١٩٩٧م. ملخص التقرير Our Creative Diversity موجود أيضا على الإنترنت فى الموقع www.unesco.org/culture/development/wccd

١١ـ الموقع فى الإنترنت: www.britannica.com arts:

١٢ ـ الصادق المهدى، «على طريق الهجرة الثانية» ص ٣٧.

١٣ ـ ابن حزم الظاهرى الأندلسى (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م): هو على بن أحمد بن سعيد بن حزم فارسى الأصل، ولد فى قرطبة، كان ظاهرى المذهب، ومن أهم كتبه: الفصل فى الملل والأهواء والنحل، جوامع السيرة، المحلى فى الفقه، الإحكام فى أصول الأحكام.

١٤ ـ كتب ابن حزم رسالة فى الغناء الملهى أمباح هو أم محظور ـ تعرض فيها لـ١٢ من الأحاديث المانعة للغناء وجرحها وقال : وكل هذا لا يصح منه شيء، وهى موضوعة . ثم أورد ٦ من الأحاديث المبيحة . انظر للتوسع كتاب د . محمد عمارة : الإسلام والفنون الجميلة ـ دار الشروق ـ القاهرة . حيث أورد نصوصا لابن حزم وللإمام الغزالى تؤيد السماع، ونصوصا لابن تيمية تمنعه، وقد قرأها ضمن الحال المتردى للمسلمين آنذاك .

١٥ ـ القرطبى (٥٧٨ ـ ٦٧١هـ/ ١١٨٢ ـ ١٢٧٤ م) : هو محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الخزرجى الأنصارى القرطبى . أبو عبد الله من أهل فرطبة وإليها نسبته . أشهر تصانيفه : (الجامع لأحكام القرآن) المعروف بتفسير القرطبى .

١٦ ـ البخارى (الإمام) (١٩٤ ـ ٢٥٦هـ/ ٨٠٩ ـ ٨٦٩م) : انظر هامش : ٨ ـ المقدمة .

١٧ ـ المرجع نفسه ص٥٦.

١٨ ـ الغزالى (أبو حامد) (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١١١م) : هو محمد بن محمد بن أحمد الغزالى الطوسى، درس فقه الشافعية ثم تعمق فى دراسة الفلسفة وكتب (تهافت الفلاسفة) متشككا فى قيمة العلم وبراهينه المنطقية، ولكنه بعد ذلك حاول رد الاعتبار للعقل أساسا للعلم كما جاء فى كتابه (إحياء علوم الدين) .

١٩ ـ أبو حامد الغزالى الإمام، إحياء علوم الدين ـ الجزء الثانى كتاب آداب السماع والوجد . الكتاب الثامن من ربع العادات، ص ٢٧٥ ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر .

٢٠ ـ وقد تعرضت كثيرا لتلك الحاجات وهى الحاجات : الروحية ـ العقلية ـ العاطفية ـ المادية ـ الأخلاقية ـ الجمالية ـ البيئية ـ الرياضية ـ الاجتماعية ـ والترفيهية . انظر مثلا : الصادق المهدى : «نداءات العصر»، ٢٠٠١م ـ الخرطوم .